

(الشك المنهجي في الإسلام)  
-الشك عند ابن حزم انموذجا -

د/ طيبي ميلود، جامعة بالجلفة

ملخص:

الشك المنهجي في الإسلام، ثقافة علمية وعملية، وواجب شرعي لأعمال العقل، وتوظيف الإيمان، ليس حاله مرضية كالشك المطلق عند السفسطائية، ولا هو شك ذهني رياضي بلغة ديكرت، كما أنه ليس حالة طمأنينة دائمة لاتنتهي يكون معها البناء المعرفي صعبا...أنه حالة من الحذر التي تجنبنا اليقين ابمعرفي الكامل، وحاله أيمانية تنهي الصراع داخل النفس المؤمنة وتمكنها من وضع ارضية معرفية صلبة غير متحركة، وهذا ماوصل اليه ابن حزم الظاهري، وما ادركه الغزالي الذي أصبح اشعريا.  
كلمات مفتاحية: الشك المنهجي، ابن حزم، الاسلام

\* الشك اول واجب عند ابن حزم :

تكملة للموضوع السابق حول المنهج الشك عند ابن حزم وكل المتكلمين في الفكر الإسلامي ، فإن الطريف الذي نلاحظه في نزعة الشك عند هذا المتكلم (ابن حزم الظاهري الأندلسي 384 هـ/ 456 هـ) وقد برزت على صعيد العقيدة فقال : " لا يصح إسلام احد حتى يكون بعد بلوغه شاكاً غير مصدق " (1). ومن المتناقضات أن يلتقي ابن حزم الظاهري بابي هاشم في إيجاب الشك على المكلف ، وعدّه أول خطوة واجبة على المسلم ، ليكون أمانه عن وعي لا عن تقليد . ولعل ابن حزم استند في موقفه هذا على قضية هامة في المذهب الظاهري وهي إيمان المقلد ، إذ يرى "أن التقليد حرام ولا يحل لاح دان يأخذ بقول من غير برهان" (2) . وهكذا يبدو كيف اخذ أهل الفكر الإسلامي بنزعة الشك كضرورة لفحص المعرفة وتمحيصها ولم تختلف هذه الظاهرة حتى لدى أولئك المتشددين في التمسك بالنص كالظاهرية .

وإذا كان الشك واجبا على صعيد العقيدة لتركيز الإيمان على أسس صحيحة فهو في المعرفة العامة اوجب ، وللاخذ به أوكد ، والإمام بمنهجه أيسر .

نظرية المعرفة عند اهل السنة :

إن تراث أهل السنة غني بالحديث عن المعرفة ومفعم بالنصوص التي ترفع من شأن العقل ، يتجلى ذلك عند الماتريديّة وخاصة مؤسسها الماتريدي الذي سميت باسمه ، والذي يعد الفرع الثاني لأهل السنة ، حيث يستهل الماتريدي ومن كان على نهجه ومنهجه في العقائد الماتريديّة كالنسفي كتب العقائد بمقدمة يتحدث فيها عن العلم وأسبابه كقولهم : "حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم به متحقق خلافا للسفسطائية ، وأسباب العلم للخلق ثلاث : الحواس السليمة ، الخبر الصادق والعقل ، ثم يفسر الماتريدي (3) والنسفي (4) هذه الأسس الثلاث للمعرفة "

... ويعرفنا العلم عند أهل السنة " بأنه معرفة المعلوم على ماهو به " (5) ويرفض النسفي القول بان الإلهام من أسباب المعرفة ، مع كون الصوفية يجعلونه الأساس الأول لها .

وللأشاعرة مواقف فيما استجابة لفريضة التفكير التي أوجها الله في كتابه الكريم كما ورد ذلك في كتاب التمهيد للباقلاني ، حيث يستهل بالبحث في طبيعة المعرفة ، وقد وضع لها الصنيع سنّة متبعة فيمن جاء بعده من كتاب المدرسة الأشعرية ، كما يتضح ذلك عند الجويني في الإرشاد (6) وعند البغدادي في أصول الدين (7) فقد أوضع في مستهل هذا الكتاب حدّ العلم وحقيقته ، وأثبتت حقائق الأشياء خلافا للسفسطائية التي زعمت أنه لا حقيقة لشيء ، ولا علم بشيء . ثم تطرق إلى بيان أقسام العلوم ، الضروري منها والمكتسب ، واستدلّاه عليه ، ووقوع الضروري فيه من غير استدلال ولا قدرة له عليه .

.. والعلم الضروري قسمان : احدهما علم بديهي ، والثاني علم حسّي . والبديهي قسمان أيضا ، احدهما علم بديهي في الإثبات كعلم

العالم منّا بوجود نفسه ، وبما يوجد من ألم ولذّة وجوع وعطش وحر وبرد وغمّ وفرح ونحو ذلك ، والثاني علم بديهي في النفس كعلم العالم منّا باستحالة المحالات ، وذلك كعلمه بان شيئاً واحداً لا يكون قديماً ومحدثاً وان الشخص لا يكون حيّاً وميتاً في حال واحد ، وان العالم بالشيء لا يكون جاهلاً به من الوجه الذي علمه في حال واحدة ، والضرب الثالث من العلم الضروري تواتر الأخبار عن البلدان البعيدة والأشخاص والممالك التي عفا عليها الدهر الذي علمه في حال واحدة (8).

وهكذا خاض أهل السنّة في المعرفة العقلية والحسيّة ، وفصلوا القول في العلم الاستدلالي والعلم البديهي الذي لا يرقى إليه الشك ، كما تحدثوا عن الخبر المتواتر وأخضعوه إلى النقد ومن ثمّ تطرقوا إلى الشك في الرواية وضرورة التسلح بهذه الوسيلة الهامة "الشك".

#### نزعة الشك عند أهل السنّة :

وليس بدعاً أن يتبوأ الشك المعرفي منزلة مرموقة لدى المعتزلة ، بيد أن الطريف أن نرى ملامح شك معرفي لدى تيارات الفكر الإسلامي على تباين مشاربها ، نلاحظ ذلك في ذمّ التقليد وأهله لدى النّصبيين من أصحاب المذهب الظاهري كما تجلّى عند ابن حزم . ومن الشخصيات التي فلسفت المذهب الأشعري وطورته ، ويعزى إليها الفضل في تهذيبه الجويني (إمام الحرمين) فقد عدّ الشك من المناهج المعرفية المعتمدة التي تساهم في ظهور اليقين وجلائه ، ولا يمكن للعقل إن يؤسس معارف معتبرة إلا إذا اعتمد الشك حتى يبلغ درجة اليقين (9) ، ولعل الطرافة لا تكمن عند العقلين فحسب ولا عند النّصبيين فقط ، إنما تبرز واضحة جلية لدى الذوقيين من أهل التصوف ، مما يدل ان الفكر الإسلامي بجميع روافده كان وفيماً لأصوله ومبادئه التي جعلت من التفكير فريضة إسلامية ، ومن التدبير في الآيات هدفاً إسلامياً .

...فقد ظهر في الصوفية الحارث بن أسد المحاسبي (243هـ/857م) ولم يشل قدرة العقل ، ولم يهدر طاقاته الفكرية ، وقدم تجربة روحية تعدّ ثورة على مناهج المتكلمين وأساليبهم ، فهو يقرر في كتاب العلم أن الإنسان عرضة للغلط والوهم مهما كان اجتهاده ، وليس العلم حفظاً للحقائق وإنما هو غوص وتفهم ، فإذا كان العلم كذلك (10) صار سراجاً يقود العقل في أبحاثه بل انه النور من الشمس للعين ، والمحاسبي يقسم العلوم ويقابل بينها ويرتبها ، فهو حينئذ من أصحاب الملاحظة والاختيار والتجربة الذين يستمدون عناصر تفكيرهم من الواقع لا من أصحاب النظر المطلق والتفكير المجرد (11) .

وبالرغم منه يعتبر "الرعاية لحقوق الله والقيام بها" هي السبيل الموصلة الى اليقين ، بيد انه يؤكد ان تكون هذه التجربة الروحية خالصة من شوائب الدنيا بعيدة عن نزعات الشيطان قد عرضت على محك العقل حتى يميز بين الاصيل والمزيف في هذه التجربة ، يقول في هذا الشأن : "فبالعقل والعلم والتشبهت يبصر الضرر والنفع من دواعي القلوب بالخطرات ، والا لم يؤمن عليه ان يقبل خطرة من نزعات الشيطان او تسويل النفس او من تزيين الشيطان فلن يميز بين ذلك ولا يعرفه الا بالعلم والتشبهت بالعقل ، ومثل ذلك كمن هـ في ظلمة شديدة في طريق مخوف من الأبار والزلل في المطر الوايل ، فلن ينفعه بصره بغير سراج ، ولن ينفعه السراج ان لم يكن له بصر صحيح ، ولن ينفعه البصر والسراج ان لم يرم بصره حيث يضع قدمه ويثبت ، وفان النظر الى السماء او التلفت ، ونظره صحيح ، وسراجه يزهر كان كما يبصر ولا سراج معه ، وان هو رمى بطرفه نحو الأرض ولا سراج معه ، كان كمن لا يبصر له ، فمثل البصر كمثل العقل ، ومثل السراج كمثل العلم ، ومثل النظر بالثبث مثل التثبث بالعقل والاستضاءة بالعلم وعرض ما يخطر على الكتاب والسنّة" (12) .

فالنزعة العقلية عند المحاسبي واضحة المعالم ، بيد انه قد سلك طريق التصوف ثائراً على المناهج الكلامية رائدة . ... في ذلك رعاية حقوق الله وربط الصلة ربطاً وثيقاً واستحضاره استحضاراً دائماً مع الحذر من نزعات الشيطان وتسليط أضواء العقل والعلم والتثبث كي تتبين السبل ولا تلتبس المسالك .

ومن سلك مسلك التصوف ولم يميز بينه وبين غيره من مسالك شبهه الحاسبي بمن كان يسلك طريقاً في ظلمة شديدة وفي ليلة ممطرة ، وهذه الطريق مملوءة بالحفر والأبار غير مأمونة الزلل ، فلا بد لهذا السالك من سراج وبصر ولن ينفعه بصره وسراجه مع ذلك ان لم يثبت ويتروى ويشك ، وإذا لم يكن ذلك تردى وسقط ويوضح المحاسبي القول فيقول: " مثل البصر الصحيح كمثل العقل ومثل السراج كمثل العلم ، ومثل النظر بالتثبث مثل التثبث بالعقل والاستضاءة بالعلم" (13)

هكذا ينصح المحاسبي أن نثبت في "دواعي القلوب" بالعقل حتى يتبين انه حق ونعتقد تماما بصحته وبسلامة صلته في الله سبحانه اتصالا واضحا متميزا لا يرقى إليه شك .

... وإذا كان المحاسبي أثر فقد برز كأجلى مايكون عند الغزالي فتأثيره واضح فلقد قال فيه: "المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآيات الأعمال ، وكلامه جدير بان يحكى على وجهه ، فان من تشبع بأبحاث المحاسبي ثم نتبع انزلاقها في مؤلفات الغزالي خصوصا في المنقذ من الضلال وإحياء علوم الدين لوقف جلياً على ما انتبه إليه غير واحد ممن درس كلا المفكرين الإسلاميين "

ولعل أوضح الأمثلة على ذلك كتاب العلم للمحاسبي (14) ومدى تأثير الغزالي به في كتاب الأحياء خاصة ، ولقد افتتح حجة الإسلام كتاب إحياء علوم الدين بكتاب العلم ، والمقارن بين الكتابين (15) يلمح اثر المحاسبي فيه ظاهرا بيّنا ، وإن كان التبويب عند الغزالي أوضح والتحرير أوسع والشرح أضفى ، وهو أمر بديهي اقتضته طبيعة التطور

التمهيش :

- (1) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل 4/2
- (2) ابن حزم الأحكام المقدمة، ص ج ، انظر د/زكرياء إبراهيم  
ابن حزم المفكر الظاهري الموسوعي .
- (3) الماتريدي، التوحيد ص 5، التفاتزاني ، العقائد النفسية، ص 23.
- (4) الباقلاني، التمهيد، ص 7 .
- (5) المرجع السابق، نفس ص 7 من التمهيد، الباقلاني .
- (6) الجويني، الإرشاد ص 15 .
- (7) البغدادي، أصول الدين ، ص 8 و 9.
- (8) البغدادي، أصول الدين، ص 8 و 9 .
- (9) التهانوي، كشف إصلاحات الفنون 3/780.
- (10) محمد العابد مزالي، مقدمة كتب العلم للحارث بن أسد المحاسبي 49.
- (11) المصدر ذاته، ص 57.
- (12) المحاسبي ( الحارث بن أسد ) الرعاية لحقوق : راجع وقدم له الدكتور عبد الحلیم محمود طه عبد الباقي المسرور، ص 80.
- (13) المصدر نفسه ، ص 80.
- (14) محمد العابد مزالي، كتاب علم المحاسبي، ص 77.
- (15) قارن بين ماجاء في كتاب العلم للمحاسبي (فقرة 3 ص 84)  
تحقيق محمد العابد مزالي، وبين ما جاء في كتاب العلم ( الأحياء ص 19).